أسبوعيات نائب

الولايات المتحدة في المستنقع العراقي : هل تستأجر من يحرس لها الغنيمة ؟

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

هل بات واضحا يا ترى .. أم ظل الإسرائيليون والأمريكيون ، وصبيتهم وعملاؤهم وشركاؤهم ، سادرين في الوهم الذي تسوله القوة عادة لأصحابها ، حين يفقدون القدرة على فهم قدرات (الآخر) الذي يعادونه طمعا وافتراء واحتقارا لشأنه ؟!

أظن أن هناك علامات وإشارات لا يخطئها النظر : أولئك الجنود الأمريكيون الصرعى بالأمس في بغداد والفالوجة وتكريت ؛ والإسرائيليون الصرعى في بيت حانون والمطاحن ؛ والألمان الصرعى في أفغانستان .. أليسوا علامات صارخة تعلن من جديد أن سياسات الغزو والاحتلال والظلم والاحتقار من جانب المحتلين لا تجلب إلا الردود الثورية والفدائية والتحريرية (مهما ابتدع لها المحتلون اسم الإرهاب !) من جانب أهل البلاد وأصحابها الشرعيين ؟

ربما كانت الإدارة الأمريكية تتخيل أن الشعب العراقي العربي ، أو الشعب الأفغاني المسلم ، قد رفعا الأيدي والأرجل استسلاما بعدما شاهدا في الحرب الأمريكية أعاجيب القنابل الذكية والصواريخ الموجهة بالليزر ، وذلك أيضا هو ظن الحكومات الإسرائيلية التي ـ لأول مرة في تاريخ المستعمرين كلهم ـ جعلت للدبابة حضورا دائما في قلب الشوارع والحارات والأزقة في المدن والقرى الفلسطينية ؛ يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة ! وها هي قوات الاحتلال الأمريكي في العراق تقتدي بها وتتبع سنتها الخبيثة . إنهم قصار نظر ، يصطنعون لأنفسهم أمانا بواسطة أبراج الحديد السائرة على جنازير ، ويعززونه بأمان آخر بواسطة السي آي إيه والإف بي آي

والموساد والشين بيت ، وما لهؤلاء من عيون آذان وأذرعة . ولم تمر عليهم قولة الفارسي القديم : عدلت ، فأمنت ، فنمت .

أم لعل السر يكمن فيما عبرت عنه العجوز ذات الساقين ؛ أعني مادلين أولبرايت ، التي سئلت عشية الحرب على العراق عن رأيها في قرار إدارة بوش الجمهورية شن تلك الحرب ، فأجابت ، وهي وزيرة خارجية ديمقراطية سابقة : " إن العائد يستحق الثمن " . ومعنى ذلك بالإنجليزي الفصيح : إن نفط العراق يستأهل بذل دماء أبناء الأمهات الأمريكيات ! وهذا الجشع مثله كمثل جشع شارون واليمين الإسرائيلي : يريدون ما تبقى من أرض الفلسطينيين ، ولو كان ثمن هذا الجشع دماء أبناء الأمهات اليهوديات .

تعبئة مقابل تعبئة

لقد تفاءل خيرا الجيل الذي عاش في القرن الماضي عندما بدأت موجة الاستعمار البريطاني والفرنسي في الانحسار خلال عقدي الخمسينيات والستينيات ، واضطر قادة الدولتين إلى الانسحاب من العديد من دول آسيا وإفريقيا . وإن بقيت أصابعهم تتلاعب وتعبث وتتآمر على الاستقلال الوليد . ومهما يكن الحال فيما بعد فإننا شعرنا ـ نحن أهالي البلدان النامية آنذاك ـ أن شمسا جديدة تشرق وعصرا جديدا خاليا من الاستعمار والاستغلال والظلم أصبح في متناول الأيدي .

ومع أن نذرا مبكرة كانت تعطي الانطباع بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستفتتح عصرا إمبرياليا ألعن من عصر الاستعمار التقليدي البريطاني ؛ أو الفرنسي ؛ أو الهولندي ؛ أو البرتغالي ، فإن تلك النذر لم تبلغ مبلغ الحسم في دلالتها . أضف إلى ذلك أن وجود القوة الثانية المتمثلة في الاتحاد السوفييتي جعل من المستبعد التوسع في ذلك الانطباع .

ولكن ها هي الولايات المتحدة تعيد إلى العالم أسوأ الذكريات عن الاستعمار وظلمه وتحكمه بمصائر الناس ونهبه خيراتهم وتحايله على المنطق الصحيح واستبدال المنطق بالآلات الإعلامية ونفوذها المذهل ، حتى أصبح العالم مكانا بغيضا لا يكاد الناس يتحملون عيشهم فيه .

وبالغت الولايات المتحدة في إحساسها بوهم القوة مبالغة لم يسبقها إليها أحد ، نظرا لأنها ملكت من آلات الحرب وأسلحة الدمار الشامل ووسائل الكشف الإلكتروني ، ومن المال أيضا ، ما لم يملكه أحد في العالمين . وقد يكون من أسباب مبالغتها في الطيش أنها دولة محدثة لا عراقة لها . ويزيدها خبالا على خبالها العقل الصهيوني الصغير الذي يحكم جسمها الضخم الكبير .

وفي مقابل هذه التعبئة بالإحساس بالقوة وطيشها وغرورها والنزعة إلى البطش والسيطرة وتجربة السلاح الرهيب في الأجساد الحية فقد تشكلت ردا عليها في منطقتنا العربية والإسلامية تعبئة وطنية ـ قومية ـ إسلامية اختزنت مرارة المظالم التي اقترفها المستعمرون القدامى والجدد ، فجميع البلدان العربية والإسلامية خضعت لاستعمار تلك الدول التي امتصت دماءها ونهبت ثرواتها الخام . وهكذا استمدت شعوبنا قدرا من الحصانة ضد الجرثومة الأمريكية القوية بسبب تعرضها للجرثومة الأوروبية سابقا ، ثم بسبب العلم والاطلاع وثورة الاتصال التي لم تدع أحدا في عماه القديم . ومن اللافت للنظر أن رجلا كأسامة بن لادن يكتنز كمية لا يستهان بها من المعارف العصرية بالإضافة إلى تربيته السلفية . وهو يتقن استخدام الإنترنت ، ويعرف قيمة الأسلحة المختلفة . ولا بد أنه اكتسب الكثير من هذه المعارف وفنون القوة حينما بدأ يحارب الروس في أفغانستان مستفيدا من آلات الأمريكيين ومن معارفهم . وتلك سمة من سمات العصر : انتقال تيار المعلومات والمعارف والخبرات والمهارات من الجاني إلى المجني عليه . وما يصدق على بن لادن يصدق على غيره في هذه المنطقة المضطربة .

الورطة والمستنقع

وها هي الولايات المتحدة تفاجأ بأن الثمن الذي يتعين عليها دفعه أعلى مما كانت العجوز ذات الساقين تحسب . وعندما سئل وزير الدفاع الأمريكي السابق كوهين في إحدى الفضائيات سؤالا عن مسألة الثمن الذي يجري دفعه من دماء الأمريكيين في العراق حاليا أجاب ـ وكله لسان يدافع عن إدارة الجمهوريين على الرغم من كونه وزيرا ديمقراطيا سابقا ـ :" سوف يتم تدويل القوة التي تتولى أمن العراق ". أي أن الحكومة الأمريكية تنوي

التخلص من هذا العبء الدموي والخسارة البشرية اليومية باستئجار وتسخير مرتزقة أوروبيين ، وربما من جنسيات أخرى ، ليحموا خزان النفط الذي دخل في ذمة الأمريكيين ، وذلك نظير أجر من النفط تناله الحكومات المرتزقة ، كحكومة بولندا التي أبدت استعدادها لأداء هذا الدور . وكذلك يفعل الإسرائيليون بإدخالهم عناصر الأقلية العربية في إسرائيل للجيش وحشرهم تلك العناصر في الواجهات الساخنة . وبعبارة أخرى إن الأمريكيين الذين ازداد تساقط جنودهم في شوارع المدن العراقية ، ورأوا رأي العين الورطة التي ورطوها والمستنقع الذي حشروا أنفسهم فيه ، قرروا أن ينجوا بأولادهم من المستنقع ويحشروا فيه أولاد الآخرين ، لأن أولادهم أغلى وأعز وأولاد الآخرين أرخص وأهون مصيبة ! ونحن في هذا الحديث كله نحينا جانبا خسائر العراقيين ، لأن العراقيين - شأنهم شأن الفلسطينيين وشأن العرب والمسلمين جميعا - لا حساب لقتلاهم ولا قيمة لأرواحهم ولا مغزى لوجع قلوب أمهاتهم ولا أصوات لهم في الانتخابات الأمريكية .

أكاذيب دوبيا وأعوانه

وفي الأسبوع الماضي هبت عواصف من الإدانات الجارحة في وجه كل من الرئيس الأمريكي جورج بوش (الشهير بدوبيا كما يقول حسنين هيكل) ، ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير (الذي دعاه النائب جورج جالاوي بذنب بوش) . وجاءت هبة العواصف الأولى من الكونغرس الأمريكي ، حين نصب بعض أعضائه منصة الاستجواب للرئيس ، حول صدقية المزاعم بوجود أسلحة الدمار الشامل في العراق ، التي على أساسها قامت الدولة الأمريكية العظمى : النووية ، الهيدروجينية ، الكوبالتية ، الجرثومية ، الكيماوية ، الصاروخية ، بالهجوم على هذا البلد بحجة تجريد صدام حسين من تلك الأسلحة - كما كان دوبيا يلح بالقول بلهجة مسرحية ، مشددا على حروف كلمات تلك العبارة ، مستدرا تصفيق جمهوره المعبأ بالإحساس بالقوة والتفرد - .

وتسلسلت معركة الاتهامات يوميا ، ودخلت غمارها ، مدعيةً أو متهَمة ، أجهزة المخابرات الأمريكية بعد النواب الأمريكيين ، ومست بنائب الرئيس ديك تشيني بعد أن مست بالرئيس ، واغتنم فرصتها رئيس الإيموبيك

السابق هانز بليكس الذي سينتهي عقده مع مجلس الأمن في الشهر القادم ، وعبر بأسلوب دبلوماسي رصين عن ضيقه المحتبس طويلا من أكاذيب دوبيا وأعوانه بسبب إمدادهم إياه أثناء عمل لجنته في العراق بتقارير زائفة " لم يكن من شأنها أن تساعد المفتشين الدوليين في عملهم " كما قال . أما سكوت ريتر الرئيس السابق لبعثة المفتشين الدوليين في العراق فتكلم بالصراحة المعهودة فيه سابقا قائلا إن الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير كذبا على شعبيهما ، ولذا تجب محاكمتهما .

وربما كان من تأثير العدوى أن انتقلت الحالة إلى بريطانيا . فإذا بأعضاء مجلس العموم يرفعون أصواتهم متهمين بلير بأنه كاذب وممو فيما يتعلق بفرية أسلحة الدمار الشامل العراقية التي اشترك مع سادته الأمريكيين في ترويجها واتخاذها سببا لشن الحرب على العراق . وصرخ أحد النواب قائلا إنه لم يعد في الوسع تصديق توني بلير بعد اليوم . وهكذا . وهكذا بدا أن الحالة التي انتقلت إلى الذيل قد استوطنت فيه وربما ستؤثر فيه بأشد مما أثرت في الرأس .

هذه الوقائع المفاجئة قال البعض إن مصدرها قد يكون اللوبي الصهيوني ـ الأمريكي ـ البريطاني ، الذي نشط بعد مؤتمري شرم الشيخ والعقبة ، ومراده الضغط على الرئيس الأمريكي حتى لا يفكر هذا في الضغط على شارون وحكومته وفي إلزامهم بأداء ما هو مطلوب منهم في خريطة الطريق .

وقيل بالمقابل ـ تبعا لوجهة نظر أخرى ـ إن الأمر يرجع إلى فشل قوات الاحتلال الأمريكي ، طوال فترة ما بعد الحرب ، في تقديم الدليل على وجود أسلحة الدمار الشامل التي كان الزعم بوجودها هو سبب الحرب المعلن أمام الجمهور وأمام ممثليه البرلمانيين على حد سواء ، وهكذا بدأت ألاعيب تزوير التقارير الاستخبارية وغيرها من الألاعيب تفتضح بحكم طبيعة العصر وطبيعة الأنظمة الديمقراطية .

التوقيت والإيقاع والوتيرة

وكلا هذين التعليلين غير مستبعد . وله سوابق تؤيده . وإن كانت فيه نقاط ضعف .

فغير مستبعد أن يكون اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ؛ وفي بريطانيا أيضا ، وراء هذه الحملة المتلاحقة لإضعاف الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني . يدلنا على ذلك (التوقيت) الذي تصاعدت فيه الحملة ، فضلا عن (الإيقاع) و (الوتيرة) اللذين هما طابع مشهود لهذه الحملة . فالتوقيت لا يصادف انقضاء شهر ونصف الشهر على نهاية الحرب على العراق وحسب ، وإنما يطابق موعد الحدث الساخن الأكبر في التو واللحظة ، وهو مؤتمرا شرم الشيخ والعقبة . ويدل الإيقاع والوتيرة المشهودان في الحملة أنها ليست عفوية ، وإنما هناك من يحركها ويغذيها ويبدو أنه يريد استثمار آثارها . وليس في الولايات المتحدة قوة أقدر من اللوبي الصهيوني المتفشي في مفاصل السلطة على فعل ذلك في مواجهة الرئيس . وسبق لإسرائيل في الشهر الماضي أن أوفدت وزير سياحتها الحاخام بيني أيالون إلى الولايات المتحدة للاتصال بالكونغرس وإقناع أعضائه بالسير في اتجاه تهجير الشعب العربي الفلسطيني إلى شرق الأردن بدلا من السير في طريق الاعتراف بدولة في غرب الأردن (الضفة الغربية) . ومع أن خريطة الطريق صدرت في الظاهر عن الإدارة الأمريكية ، وروعيت فيها ـ طبعا ـ الاشتراطات والصيغ الإسرائيلية ، كما هو الحال في جميع الوثائق والتصريحات الصادرة عن الأمريكيين (والتي يتعذر التمييز بينها وبين الوثائق والتصريحات الإسرائيلية ذاتها) ، فإن شارون وضع عليها تحفظاته الأربع عشرة . فلم يملك الأمريكيون إلا أن ينزلوا عند إرادة السيد الصهيوني الأعلى ويعدوا الإسرائيليين بمراعاة تلك التحفظات أثناء التنفيذ . والغريب في أمر الساحة السياسية الإسرائيلية أنها لا تتوقف عن (تفقيس) اليمين المتطرف والأكثر تطرفا حتى صار البعض ينسب شارون صانع المذابح والمجازر الوحشية إلى الحمائم ويكادون يصنفونه في مصطلحاتهم السياسية يساريا من اليساريين !

ومن نقاط الضعف في هذه الفكرة أن العقل يقول باستحالة وقوع اختلاف بين شارون وبوش ، لا لأن الرئيس الأمريكي مفتون بشخصية شارون وحسب ، ولا لأن حول الرئيس مساعدين هم أشد صهيونية من المألوف ، وحوله كهنة من غلاة المتصهينين وحسب ، ولكن لأن المرء يستبعد بشدة أن يقدم دوبيا على مخالفة اللوبي الصهيوني الأمريكي في هذه السنة التي تسبق انتخابات الرئاسة القادمة . وإنه لأقرب للذهن ألف مرة أن يكون أي خلاف بين الطرفين مظهريا مجردا ومتفقا عليه في الباطن من أن يعد خلافا حقيقيا في العمق .

فابريكة الفضائح

ولا يمكن في الوقت نفسه إلغاء الاحتمال الثاني حول أسباب الحملة على الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني ، وهو الاحتمال الذي يقول إن طبيعة العصر والأنظمة الديمقراطية تقف وراء إثارة هذه الفضيحة ، فضيحة الكذب العمومي على السلطات العمومية والجمهور العمومي في شأن قضية كبرى هي قضية الحرب والسلام .

ومن قبل شهدت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا فضائح سياسية مثل فضيحة كلينتون وفضيحة نيكسون وفضيحة كينيدي في أمريكا وفضيحة بروفيمو وكريستين كيللر والجاسوس المزدوج الذي نسينا اسمه في بريطانيا .

بيد أن قيام المسؤول السياسي الأعلى بتضليل السلطات الشرعية عمدا في كل بلد من البلدين اللذين يزعمان أنهما رمزا الديمقراطية ، وذلك بشأن إدخال البلدين بناء على أدلة مزيفة كاذبة ملفقة في مغامرة الحرب (حتى وإن كانت مغامرة ناجحة بمقياس الرأسماليين) هو أمر يتنافى مع ثورة المعلومات وحرية الوصول إليها من ناحية ، ويتنافى مع فكرة الشفافية والصدق التي هي لب الديمقراطية .

ولكن من نقاط الضعف في هذه الفكرة بدورها أن الفضائح في الساحات السياسية لا تبرز تلقائيا من خلال كون أحد قد اكتشفها بالصدفة فلم يطق التكتم عليها ، بل إن للفضائح فابريكة تقع غالبا في داخل سراديب ودهاليز

أجهزة الأمن ، وهي تجارة يجري استثمارها في صفقات رهيبة لا تخطر إلا ببال الشياطين .

فما السر في افتضاح ما لم يكن في الحسبان افتضاحه وتردد أصدائه المجلجلة في وسائل الإعلام ؟ أهو قرار صهيوني بالضغط على الرئيس الأمريكي لحمله على جعل شارون مرجعيته الوثيقة الدائمة وجعل خارطة الطريق كمينا قاتلا ومتاهة جديدة للشعب العربي الفلسطيني ؟ أم هو بشير بأن المخططات الاستعمارية السرية لن تبقى سرية في عصر التنوير والمعلوماتية المتاحة بحكم طبيعة العصر ، وبسبب مبدأ الشفافية والمحاسبة الذي يتحدث الغرب عنه ولا ندري بالضبط ما مبلغ نصيبه من التنفيذ ؟ لن يطول بنا الوقت حتى يأتينا العلم ، لأن القضية قضية فلسطين التي تفضح الأسرار وتهتك الأستار .